سُورَةُ القَلَمِ

النزول: مكية.

المقاصد:

١ ـ بيان قدر رسول الله ﷺ.

٢ ـ الردُّ على اتهامات المشركين للنبي ﷺ.

٣ ـ تهديد المكذِّبين، وبيان سوء عاقبتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١ ـ تبدأ السورة الكريمة بحرف ﴿نٓۚ﴾ (نون) وهي آخر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، وحكمة الابتداء بهذه الحروف التنبيه على إعجاز القرآن، وأنَّه من جنس هذه الحروف، ثم أقسم الله تعالى بالقلم، وبما يُكتب به.

٢ ـ تنفي هذه الآية الكريمة ـ وهي جواب القسم ـ عن النبي ﷺ ما اتهمه به المشركون من جنون، وتُبَيِّنُ أنَّ النبوة نعمة عظمى من الله تعالى خَصَّ بها نبيَّه الكريم ﷺ.

٣ ـ تؤكد هذه الآية أنَّ للنبي ﷺ ثواباً كبيراً دائماً لا ينقطع؛ لتحَمُّلِه أعباءَ الرسالة وقيامه بحقها حق القيام.

٤ ـ تؤكد هذه الآية الكريمة أنَّ النبي ﷺ يتحلَّى بأعظم الصفات، وأحسنها وأطيبها، ويتمتع بالأخلاق العالية النبيلة المثلى، وقد جمع ﷺ محاسن الأخلاق، واتصف بأرقى ما يتصف به بَشَرٌ من حُسْنِ خُلُقٍ، ونُبْلِ سلوك.

٥ ـ ٧ ـ إنَّ مَنْ كان متصفاً بمحاسن الأخلاق لا يمكن أن يكون مجنوناً، وستعلم ـ أيها النبي الكريم، وسيعلم المشركون من قومك عِلْمَ يقين لا امتراء فيه ـ مَنِ المستحقُّ للوصف بالجنون حين تنكشف لهم الحقائق، ويُظهر الله تعالى لهم ولجميع الخلق ما يعلمه سبحانه، فإنه يعلم مَنِ اتَّبع سبيله، ومَنْ لم يتبعه، ويعلم مَنْ يستحق الوصف بالجنون، ومَنْ هم العقلاء مِنْ خَلْقِه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في القسم بالقلم وبما يُكتب رفعةٌ لشأن العلم والعلماء، وتنبيه لأهمية الكتابة وفضلها، ودورها في نشر العلم وحفظه.

٢ ـ تَوَلَّى الله تعالى الدفاع عن نبيه ﷺ؛ وذلك لعظيم مقامه عنده، وبَيَّنَتْ لنا هذه الآياتُ عظيمَ خُلُقه، وعظيم الأجر الذي أكرمه الله تعالى به.

٣ ـ سار مشركو مكة على طريقة مَنْ سبقهم من مشركي الأقوام السابقة في اتهام نبيِّهم بالجنون، وكأنَّهم تواصَوا على ذلك. ولعل لجوءَهم إلى هذه التهمة لسرعة تَبادُرِها إلى الأذهان، وكثرة حصول الاتهام بها بين الناس.

٤ ـ بدأت الآيات الكريمة بنفي تهمة المشركين للنبي ﷺ بالجنون، ثم ببيان محاسنه وعظيم أخلاقه. وفي هذا تعليم لنا أن نُزيل الباطل قبل تثبيت الحق.

٥ ـ يُلْحَظُ كثرة المؤكدات في الآيتين (٣ ـ ٤) وهي: التأكيد بـ (إنَّ)، والخطاب بالكاف، وتقديم الجارِّ والمجرور «لك»، وتنكير «لأجراً»، ووصفه بأنَّه غير منقطع، واستعمال «على» المفيدة للاستعلاء والتمكُّن.

٦ ـ اجتمع في النبي الكريم ﷺ سماتُ القدوة الحسنة من الصفات الحسنة، والأخلاق الفاضلة، ولم يكن أحدٌ لِيعيبَه بشيء من هذا الجانب. ومن أحسن ما وُصِفَ به خُلُقُه الكريم ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها في حقه: «كان خُلُقُه القرآن». (رواه أحمد برقم ٢٤٦٠١، ٤١/١٤٨ الرسالة. وهو صحيح).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ
بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

٨ ـ تَنْهَى هذه الآيةُ النبيَّ ﷺ عن الاستجابة لطلب المشركين الذين كذَّبوا به وبرسالته، وكان طلبُهم أن يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا الله مدة.

٩ ـ وهم راغبون في أن تستجيب لطلبهم هذا، وأن تَلِينَ لهم، وتُوافِقَهم فيما يطلبون إليك، وهم من جانبهم مستعدون للتنازل في مقابل ذلك.

١٠ ـ تنهى هذه الآية الكريمة النبي ﷺ عن الاستجابة لما يطلبه المتصف بالصفات السيئة المذكورة، وهي: أنه كثيرُ الحَلْفِ بالباطل، حقير النفس والرأي.

١١ ـ يعيب الناس ويغتابهم، ويسعى للوقيعة بينهم، وينقل كلام بعضهم في بعض، أو في الافتراء عليهم.

١٢ ـ بخيل يمنع ماله، ويمنع الآخرين من الإنفاق، ظالم، متجاوز للحَدِّ، كثير الوقوع في الإثم.

١٣ ـ ١٤ ـ غليظ الطبع، لئيم النفس، وهو بعد ذلك كله مُجاهِرٌ بالشَّرِّ، مُغْتَرٌّ بما عنده من مال وأولاد.

١٥ ـ وبلغ به الغرور والسفه أن يقول عن آيات القرآن الكريم: إنَّها أباطيل السابقين وخرافاتهم.

١٦ ـ إنَّ المتصف بهذه الصفات سيُعاقَبُ يوم القيامة بعقوبةٍ مُذِلَّةٍ له، إذ تُظهره بين الخلق بمظهر مهين، وهي علامة ظاهرة على أَنْفه، أو في وجهه؛ ليعرف بسوئه. وهذه الآيات عامة في كل منْ اتصف بهذه الصفات، وهم موجودون قديماً وحديثاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ طَلَبُ المداهنة والتنازل عن بعض الحق من قِبَلِ المشركين قديمٌ

حديثٌ، وهو ممَّا يندرج ضمن اتباع خطوات الشيطان، إذ يبدأ التنازل بخطوة، ثم تتبعه خطوات.

٢ ـ جميع الصفات المذكورة في هذه الآيات لِـمَنْ نهى الله عن طاعته صفات ذميمة سيئة، ينبغي للمرء المسلم أن يترفع عنها، وأن يتخلق بحسن الأخلاق وطيبها.

٣ ـ التفصيل الذي ورد في هذه الآيات للصفات الذميمة فيه تنفير منها، وممَّنْ يتصف بها.

٤ ـ في التعبير عن الأنف بالخرطوم، واختيار السمة، وهي العلامة فيه، لزيادة الإذلال والإهانة للمتكبر المتعالي على الخلق، الذي يشمخ بأنفه على الناس.

٥ ـ ذكر بعض المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في شخص محدد من مشركي قريش، ثم اختلفوا في تحديده. والقول بالعموم أولى؛ ليشمل ذلك كلَّ مَنِ اتصف بهذه الصفات الذميمة.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن
رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ
﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ
رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ
أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التفسير:

في هذه الآيات الكريمة قصة أصحاب الجنة، الذين أرادوا مَنْعَ المحتاجين حَقَّهم، فعاقبهم الله بتخريب جنتهم، فندموا وأصلحوا شأنهم، وكان ذلك عبرةً لهم، ولِـمَنْ علم بقصتهم.

١٧ ـ ١٨ ـ تخبر الآية الكريمة أنَّ البلاء أصاب مشركي مكة كما أصاب قوماً من قبلهم كان لهم بستان، واتفقوا فيما بينهم، وحلفوا الأيمان أن يقطفوا ثمار بستانهم صباحاً، ولا يتركوا فيه شيئاً للمحتاجين.

١٩ ـ ٢١ ـ فأرسل الله تعالى على بستانهم وهم نائمون في الليل ما أذهب ثماره وأهلكها، وهم لا يعلمون بما حصل.

٢٢ ـ ٢٣ ـ ولما أصبح أصحاب البستان نادى بعضهم بعضاً أن أسْرِعوا، وانطلِقوا مبكرين إلى بستانكم لقَطْعِ ثماره، كما اتفقوا عليه ليلاً.

٢٤ ـ ٢٦ ـ فذهبوا وهم يتحدثون بصوت خافت أنَّهم لن يسمحوا لأحد من المساكين بالدخول إلى بستانهم، فهم أصحاب البستان، ولهم الحق في التصرف فيه، ومَنْعِ مَنْ يشاؤون من دخوله.

٢٦ ـ ٢٧ ـ فُوجئ أصحاب البستان حين رأوه وقد هلكت ثماره وزالت، وظنوا أنَّهم قد وصلوا إلى غيره، وأنَّهم تاهُوا عن الطريق، ولكنَّهم حين تأملوا تيقنوا أنَّه بستانهم، وعَرَفُوا أن الله عاقبهم على قصدهم السيِّئ، وحَرَمَهم من ثمار بستانهم لَـمَّا أرادوا حرمان المساكين حقهم.

٢٨ ـ ٢٩ ـ قال أحدهم وهو أعدلهم رأياً، وأفضلهم حالاً: ألم أطلب منكم أن تُنَزِّهوا الله تعالى وتذكروه، ولا تمنعوا المساكين حقهم في مالكم، قالوا: نُنَزِّه الله تعالى عن الظلم فيما فعل بنا، واعترفوا بقصدهم ظلم المساكين بمنعِهم حَقَّهم من المال.

٣٠ ـ ٣٢ ـ وبَدؤُوا يلوم بعضهم بعضاً، واعترفوا بذنبهم، وتجاوُزِهم الحدَّ فيما عزموا عليه، ودعوا الله تعالى أن يعوضهم خيراً مما أهلكه لهم، قالوا ذلك وهم راجُون من الله العفو، وقبول التوبة الصادقة.

٣٣ ـ وبمثل هذا العقاب الذي أصاب أهل البستان يُعاقب اللهُ كلَّ مَنْ تعدَّى وكفر، ولم يستجب لأمر الله تعالى، وهو عذاب هيِّن يسير مقارنة بعذاب الآخرة، ولو أنَّ المشركين والمعرضين عن أمر الله عَلِمُوا ذلك لما عَمِلُوا بما يؤدي إليه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تشابُهُ حالِ أهلِ الكفر والباطل في القديم والحديث.

٢ ـ ما حصل من أصحاب البستان من توبةٍ وإنابةٍ سريعة إلى الله، هو الأصل في كل مَنْ تضعف نفسه، ويقع في المعصية.

٣ ـ دَلَّتْ هذه الآيات على أنَّ مَنْ عزم على فعل المعصية، وأخذ بالأسباب المؤدية إليها يُعَدُّ عاصياً، وقد يزجره الله عن ذلك الفعل.

٤ ـ كان إهلاك ثمر البستان مانعاً لأصحاب البستان من فعل المعصية التي عزموا على فعلها، فكان أمراً ظاهره الشرُّ وباطنه الخير لهم بمنعهم من فعل القبيح، وهلاك البستان أهون ممَّا عزموا عليه من معصية.

٥ ـ يقول العلماء: عندما يتعرض النبات للأعاصير الصاعقة أو الرياح الشديدة المصحوبة بالصاعقة يهلك الزرع، فالصاعقة تميت وتجفف، فإذا ارتفعت شدتها تؤدي إلى الإحراق والتفحم، والرياح الشديدة تحطم وتكسر ما جففته الصاعقة. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم، علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي، ص ٤٠٢).

٦ ـ اتفاق مجموعة من الناس على فِعْلِ الأمر، خيراً كان أو شراً، يزيد من اندفاعهم ورغبتهم في أدائه، وانفراد شخص واحد به يسبب له وحشة وتردُّداً، ومن هنا كان كثير من العبادات في الإسلام تُؤَدَّى على نحوٍ جماعي لرفع الهمم، وتقوية الدوافع.

٧ ـ دَلَّ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ على وجود بذرة الخير، ولو عند واحد من الجماعة العازمين على الشر، وعلى توجُّهه إليهم بالنصح ألا يفعلوا ما عزموا عليه إلا أنه مع ذلك وافقهم فيما أرادوا، ولم يمنعه ما فيه من خير من ذلك.

٨ ـ من طبع الناس التَّلاوُمُ فيما بينهم عند حصول ما يُذَمُّ، ومحاولة إقصاء الاتهام عن النفس، ولو بإلقائه على الآخرين، ولو كان فاعل ذلك على يقينٍ من كذبه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟
يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ
نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

التفسير:

٣٤ ـ تُبَيِّنُ الآية الكريمة أنَّ الله تعالى أعَدَّ لِـمَنْ آمن به واتقى عذابه ومعاصيه نعيماً عظيماً ورغد عيش في الجنة.

٣٥ ـ يُنكر الله تعالى على المشركين موبخاً لهم: فهو سبحانه لا يُساوي في الحساب والجزاء بين مَنْ آمن به وأسلم له، وبين مَنْ كفر به ولم يؤمن.

٣٦ ـ يخاطب الله تعالى من يُسَوِّي بين المؤمن والكافر في الحكم، مُنْكِراً عليه هذا الحكم الذي يستحق التعجيب من أمره، والتساؤل عن مبدأ حكمه، فإنه حكم معوج يدل على خَلَلٍ، وفَقْدِ اتِّزان.

٣٧ ـ ٣٨ ـ يسأل الله تعالى الكافرين عن سبب كفرهم، هل عندكم ـ أيها الكافرون ـ كتاب مُنَزَّلٌ عليكم من الله، تجدون فيه الإباحة لفِعْلِ ما تريدون وتشتهون، دونَ حساب ولا عقاب.

٣٩ ـ أحصلتم على أيمان مؤكدة وعهود من الله لكم مستمرة إلى يوم القيامة، يأذن لكم فيها أن تحكموا لأنفسكم بما ترغبون فيه من الخير، أم أنكم تفترون على الله الكذب في ذلك؟

٤٠ ـ ٤١ ـ اسألهم ـ أيها النبي الكريم ـ أثَمَّةَ مَنْ يكفل مِنْ بينهم،

ويضمن ذلك الذي يزعمون من خير وحسن جزاء عند الله، أم يعرفون مَنْ يوافقهم على هذا القول، ومَنْ يحميهم من عذاب الله، فليدعوهم لنصرتهم والشفاعة لهم إن كانوا موجودين.

٤٢ ـ ٤٣ ـ تُخبر الآية أن أحداث يوم القيامة فيها أهوال بالغة، وأحوال مفزعة، ويؤمر المشركون أن يسجدوا فلا يُمْكِنُهم ذلك، وتَغْشاهم الذلة والمهانة، وقد كانوا في الدنيا حين أُمِروا بالسجود والطاعة قادرين على ذلك فأبَوا، ولذا يحال بينهم وبين القدرة على السجود يوم القيامة.

٤٤ ـ ٤٥ ـ هذا تهديدٌ للمكذبين بالقرآن يُبَيِّنُ الله تعالى فيه أنَّه قادر على إهلاكهم أيَّ وقت يشاء، ولكنه سبحانه اختار إمهالهم، وتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، وهم لا يشعرون بذلك، ويَظُنُّون الإمهال إكراماً لهم وتفضيلاً لهم على المؤمنين، ولأنَّهم أهل مكر وكيد عامَلَهم الله بمثل صنيعهم.

٤٦ ـ ٤٧ ـ ما السببُ الذي يدعو هؤلاء إلى الكفر والجحود؟ أتسألهم أجراً مقابل تبليغ الرسالة لهم، فيكون ذلك مانعاً لهم من الإيمان؛ لأنَّه يثقل عليهم دَفْعُ هذه الغرامة؟ أم أنَّهم اطلعوا على ما في اللوح المحفوظ من غيب فكتبوه واتبعوه؟ وبما أنَّه لم يحصل أيٌّ من هذين الافتراضين وجب عليهم الإيمان بك واتِّباعك.

٤٨ ـ ٥٠ ـ هذه دعوة للنبي الكريم، ولكل مَنْ سار على دربه، أن يصبر على ما قضى الله من إمهال الكافرين، وأن يواصل الدعوة والتبليغ على الوجه الأتم والأحسن، وألا يعجل كما حصل مع نبي الله يونس عليه السلام حين غادر قومه غاضباً منهم لعدم إيمانهم، وكان فِعْلُه هذا اجتهاداً منه، وليس بأمر الله تعالى، فابتلعه الحوت في البحر، فعلم أن هذا ابتلاء له من الله فاستغاث بربه سبحانه، وهو ممتلئٌ غيظاً على قومه، فاستجاب الله له ورحمه، وأنجاه من بطن الحوت، وحَفِظه. ولولا رحمة الله به لَأُلْقِيَ في أرض خالية من النبات والزرع وهو مستحقٌّ اللومَ على ما بدر منه، ولكن اللهَ مَنَّ عليه بالقبول والرضا والاصطفاء، فقبل توبته، وشفَّعه في قومه، وأعاده إليهم ومَتَّعهم به، وهو نبي كريم موصوف بالصلاح الكامل. وفي هذه الحادثة عبرة عظيمة لكل مسلم أن يلتزم بأمر الله، وأن يصبر على الأذى ويحتمل حتى يأذن الله بأمره.

٥١ ـ ٥٢ ـ وإنَّ الكافرين من شِدَّة عداوتهم لك، ونظرهم إليك بحقد وعداوة، لَيكادُون يُزيلونك عن مكانك، حين سمعوا ما تدعوهم إليه من الآيات البينات، وزادوا على ذلك اتهامك بالجنون، وكيف يستقيم هذا الاتهام ويُقبل، وقد أنزل الله على نبيه كلاماً معجزاً هادياً للخلق أجمعين؟ وفي هذا إبطال لزَعْمِهم، ورَدٌّ عليهم بأبلغ عبارة، وأعظم دليل.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ دَلَّ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتضمن مقابلة المسلم للمجرم، أنَّ الكفر من أعظم الجرائم التي تحصل من الإنسان، ويستحق الكافر أن يلقب مجرماً.

٢ ـ عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يكشف الله ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى مَنْ كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»**. (رواه البخاري برقم ٤٩١٩ في كتاب التفسير، باب سورة القلم). وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في معنى الآية: «هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة». (أخرجه الطبري وغيره بسند حسن، يُنظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٤٢٨، الصحيح المسبور للدكتور حكمت ياسين: ٤/ ٥٢٤).

٣ ـ الأمر بالسجود يوم القيامة ليس من باب التكليف؛ إذ لا تكليف في ذلك اليوم، ولكنه للتقريع والتخجيل.

٤ ـ الاستدراج هو إيقاع الآخر في الحيلة بتمهل وخفاء دون أن يشعر بذلك، ومن الاستدراج ما يظنه الكافرون المُنْعَمُ عليهم بالمال أنهم أعطوه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

٥ ـ العادة ألا يُعلِمَ المستدرِجُ المستدرَجَ بما يخطط له، ولا يخبره به ليتمَّ له الاستدراج كما يرغب، ولكن الله سبحانه عدلاً منه ورحمة بعباده أعلمهم باستدراجه إياهم ليأخذ الفَطِنُ اللبيب منهم حِذْرَه، وينجوَ من الاستدراج والإملاء.

٦ ـ عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله عز وجل يُمْلي**

للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلته». (رواه البخاري برقم ٤٦٨٦ كتاب التفسير، باب سورة هود، ورواه مسلم برقم ٢٥٨٣، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم).

٧ ـ يُستدل بقوله تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ على إمكان حصول الإصابة بالعين، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «**العين حق، ولو كان شيءٌ سابقَ القدر سَبَقَتْه العين**».

(رواه مسلم برقم ٢١٨٨ كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي).

٨ ـ كما بدأت السورة بنفي الجنون عن النبي الكريم ﷺ خُتمت به، وفي ذلك توافُقٌ والتئام بين البدء والختام.

٩ ـ في بيان أنَّ رسالة الإسلام عامة للعالمين في هذه الآيات، التي تُعَدُّ من أوائل ما نزل مع بدء الدعوة، وما رافق ذلك من تضييق وإيذاء للنبي ﷺ ومَنْ آمن به من أصحابه، إشارات إلى أنَّ النصر لهذا الدين قادم بإذن الله، وأنَّه ليس خاصاً بأهل مكة ولا بما حولها، وفيه إشارات وبشائر بنصر هذا الدين، وأنه سيَعُمُّ العالم كله.